الإصدار الأول
المجلد (1) العدد (1)
25 أبريل 2025

المجلة السعودية للدراسات التربوية والإنسانية

المجلة السعودية للدراسات التربوية والإنسانية

الدين والتراث ومستجدات العصر (د. سالمة عبد الجبار أنموذجاً)

د. سلطنة فرحات سعد محمد

جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية - البيضاء – ليبيا

الملخص

كثيراً ما يتبادر إلى مسامعنا اتهامات العالم الغربي بأن العالم الإسلامي صار يحيا في لحظته الحاضرة فقط، وغير قادر على التواصل مع الماضي، أو الإعداد للمستقبل، في الوقت الذي يخطط فيه سادة العالم إلى ما يحفظ سيادتهم، وإلى ما يزيد في عبودية وضعف الآخرين من حولهم، هذا تماماً يحدد المأساة داخل الوعي الفكري الذي صار يستمد رؤياه من الوعي الغربي ويتضح ذلك جلياً في أغلب ملامح فكرنا العربي الإسلامي المعاصر الذي صار يتباهى بمنجزات الغرب وينبهر بها بل وأصبحت تشعره بالتميز والاختلاف، فصار المفكر الإسلامي بمثابة عالم آثار يستعيد أشكال الوعي العربي المتخطاة، ويتجلى ذلك في عدم قدرة العقل المنتج لهذا الفكر بعدم نهضته وحلحلت مشكلاته الراهنة وتحليل واقعه العربي المعاش من أجل النهوض والتطور. من هنا وجد العقل المسلم نفسه أمام نموذجين حضاريين (ازدواجية فكرية) يتمثلان في:

ـ التقدم المادي الذي انتجه الوعي الأوربي المعاصر.

ـ الموقف المُعقد اجتماعياً وفكرياً، والذي زَرع في اللاوعي حالة من الخوف على الحساسية الدينية من أن يصيبها الإنمحاء والزوال، إذا اقترب منها أحد بمناهج علمية غير مألوفة للخطاب الديني.

فالناس يعتقدوا بأن التعمق في ممارسة العلم قد يؤدي إلى إلغاء حقيقة الوحي والرسالة السماوية، وبذلك ينشأ تعارض بين الرسالة المقدسة المتعالية، الثابتة من جهة، وبين تاريخ البشر المصنوع من أحداث مرحلية ظرفية عابرة من جهة أخرى. فالحضارة الأوربية التي قدمت نفسها عبر الركود والجمود، كان الاختيار فيها من الأمور الصعبة في هذا الجانب والذي أثار اهتمام الباحثين والمفكرين المسلمين. بمعنى آخر إمكانية التوفيق بين الدين والتراث حيث أصبح العالم العربي اليوم يعيش عالمين متناقضين، تزامن انطلاق هذين العالمين ازدواجية فكرية عجزنا عن التعامل معها ولدت صدمة لدى مجتمعات العالم العربي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الدين، التراث، التقدم، الحضارة، الإسلام.

Abstract:

We often hear accusations from the Western world that the Islamic world lives only in the present moment, and is unable to communicate with the past or prepare for the future, at a time when the masters of the world are planning what will preserve their sovereignty and what will increase the servitude and weakness of others around them.

This exactly defines the tragedy within the intellectual consciousness that has come to derive its vision from the Western consciousness, and this is clearly evident in most of the features of our contemporary Arab-Islamic thought, which has come to boast of the achievements of the West and is dazzled by them, and has even come to make it feel distinguished and different.

The Islamic thinker became like an archaeologist who recovers the outdated forms of Arab consciousness. This is evident in the inability of the mind that produced this thought to revive it, solve its current problems, and analyze its lived Arab reality for the sake of advancement and development. From here, the Muslim mind found itself facing two civilizational models (intellectual duality) represented by:

- The material progress produced by contemporary European consciousness.
- The complex social and intellectual situation, which planted in the subconscious a state of fear that religious sensitivity might be obliterated and disappear, if someone approached it with scientific methods unfamiliar to religious discourse.

People believe that deepening the practice of science may lead to the cancellation of the truth of revelation and the heavenly message, and thus a conflict arises between the sacred, transcendent, fixed message on the one hand, and the history of mankind, which is made up of temporary, temporary, and transient events on the other hand. European civilization, which presented itself through stagnation and inertia, had a difficult choice in this regard, which aroused the interest of Muslim researchers and thinkers.

In other words, the possibility of reconciling religion and heritage, as the Arab world today is living in two contradictory worlds. The coincidence of the emergence of these two worlds created an intellectual duality that we were unable to deal with, which created a shock in the societies of the Arab and Islamic world.

This is what will be discussed in this research paper, thanks be to God and his success.

إشكالية البحث:

جاءت إشكالية هذا البحث من عدم إمكانية التوفيق بين التراث، والتطور المعاصر الذي نعايشه اليوم. ما أنتج عنه ازدواجية اجتماعية، وفكرية، وثقافية على صعيد المجتمعات العربية الإسلامية. فهذا التحول السريع والمتواتر صاحبته مستجدات خطيرة وغريبة بعيدة عن الدين والتراث والأعراف. زادت من تفاقم الأزمة، وانعكس سلبا على قيمة الإنتاج الثقافي والفكري، والعلمي، مما يعني أيضا أن هناك فتور في الوعي الديني.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث للتأكيد على الحاجة الضرورية الملحة إلى العمل بالتعاليم الدينية الإسلامية، وكذلك إعادة النظر في مدى الارتباط الوثيق بالتراث الإسلامي، وإزالة التشويه الذي حوله. وما له من خصوصية تميزنا عن غيرنا من المجتمعات في ظل المتغيرات التي طرأت على مجتمعاتنا اليوم.

سبب اختيار الموضوع:

ـ التعرف على رؤية د. سالمة عبد الجبار وما قدمته من معالجة للنظر في طبيعة العلاقة بين الدين والتراث وما طرأ من مستجدات أثارت جدل على الساحة في وقتنا الراهن؟

ـ التركيز على حالة الوعي الديني الإسلامي لمعالجة وتطوير الواقع المعاش من الجوانب الداخلية قبل الخارجية الداخلة علينا؟

منهجية الدراسة:

اعتمد الباحث على المنهج الوصفي والتحليلي، والنقدي، وذلك من خلال العرض لفكر أ.د سالمة عبد الجبار تجاه قضية التراث ومدى صلته الوثيقة بنا كمسلمين، وعرض موقفها من التحولات وما يصاحبها من مستجدات في الوضع الراهن. وكيفية التوفيق بين السلوكيات الداخلية (النفسية والاجتماعية للمسلم) قبل التركيز على الخارجية لمعالجة الوضع.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسات سابقة تناولات فكر أ.د. سالمة عبد الجبار تحديداً أما دراسة حالة الازدواجية في الفكر العربي الإسلامي المعاصر فقد تطرق له العديد من الأدباء والمفكرين في عالمنا العربي المعاصر. منها على سبيل المثال لا سبيل الحصر دراسة (اشكاليات العالم العربي المعاصر) للدكتور محمد عابد الجابر والعديد العديد من الدراسات على مستوى الساحة العربي.

توطئة عن د. سالمة عبد الجبار.

ولدت في 22/12/1959م بطرابلس حصلت على الليسانس في الفلسفة من كلية التربية بجامعة الفاتح عام 1980م ثم على الماجستير في الفلسفة عام 1988م كما نالت درجة الدكتوراه في الفلسفة (مقارنة الأديان من جامعة الفاتح عام 1993م. نشرت نتاجها الأدبي والعلمي في عدد من الصحف والمجلات المحلية من بينها: الطالب والميزان، الشمس، الأسبوع الثقافي، موت الوطن، تراث الشعب، واقراء.

ساهمت بدراستها في عدد من المؤتمرات العلمية داخل الوطني العربي وخارجه بينها، مؤتمر الدين والتدافع الحضاري بمالطا عام 1987م، ومؤتمر المرأة في العالم الإسلامي بالقاهرة عام 1991م، وندوة المشروع الحضاري العربي بفاس عام 1993.م، وندوة الغرب والإسلام بمراكش عام 1997م، وغيرها.

مارست العمل في مجال التدريس الجامعي والدراسات العليا وأشرفت على عدد من الرسائل العلمية لنيل درجة الماجستير وساهمت في مناقشة عدد من الإجازات الدقيقة (الدكتوراه) تولت رئاسة تحرير مجلة البيت في الفترة (95-96) ثم تم اختيارها في مؤتمر الشعب العام أمينة للشؤون الاجتماعية في الفترة (2000. 2003) لديها العديد من دواوين الشعر وكتابة الخواطر كم كتبت عن الدراسة الأكاديمية صدر لها:

(1) الدين والحرية (2) الدين والسياسة (3) الدين وقضايا العصر، الدين والإبداع (4) رؤية جديدة لتفسير الأخلاق(5) كتاب تأمّلات، وغيرها من الكتب التي لم تنشر بعد.

مقدمة:

منذ بدايات القرن التاسع عشر أخذ الانفتاح العالمي يتسع حتى شمل كل أقطار العالم، وهو ما يعد نقطة تحول جوهرية على صعيد المجتمعات العربية المسلمة، صحيح انه لم يكن بمثابة قطعية مع التراث، بقدر ما تمخض عنه حالة من الازدواجية تخللت كل مناحي الحياة الخاصة منها والعامة. ولدت لدينا صراع داخلي بين من يُنشد القديم ويحتمي به، وبين من ينكره ويتجرد منه ويعتبره عائق أمام التقدم والنهضة. هذا الصراع شمل جوانب عديدة من مجالات حياتنا نتج عنه جانبين:

- جانب يدافع عن التراث الذي هو متأصل في ماضينا.
- جانب معارض يُطالب بالتحديث للحاق بالنموذج الغربي.

فهناك من يرى أن الحل يعود لطريقة تعاملنا مع تراثنا الثقافي، ومدى تنظيم علاقتنا به وفهمه ضمن سياق مراحله التاريخية، بحيث لا نتهم بأن عاجزين بسبب التقيد به، ورفض التحاور مع غيره.

وهناك من لديهم حالة تخوف على الحساسية الدينية من أن يصيبها صائب إذا دخلت عليها مناهج علمية أو خالطت ما هو غير مألوف عن الخطاب الديني.

وقف الاتجاه التوفيقي بين هذين الموقفين موقف وسيط. فبطبيعة الحال لا يمكن لنا أن ننكر أن التراث ضروري وملح في حياتنا، فمن لا أصل له لا حاضر له، كما أن الحفاظ على التراث مشروط بالحفاظ على الهُوية العربية الإسلامية. أما لو آرتينا حداثة العصر فهذا يعني أننا ننجر وراء التبعية والتقليد للنموذج الغربي.

لازالت هذه الإشكالية قائمة حتى الساعة بين العلماء والمفكرين ومن بينهم الدكتورة سالمة عبد الجبار والتي كان لها موقف في هذا الباع داعية إلى تأسيس حداثة عربية مستقلة قائمة على أسس وتعاليم الدين الإسلامي. وعلى هذا الأساس تم اختيارها كنموذج للدراسة.

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاث مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: مفهوم الدين الإسلامي:

اولاً: المفهوم اللغوي:

جاء لفظ الدين في اللغة من لفظة "ديَّان" وهي من أسماء الله عز وجل، ومعناها الحكم والقاضي والقهار وهي فعال من "دان الناس أي أقهرهم على الطاعة. والدين هو " العادة والشأن" تقول العرب: "مازال ذلك ديني وديدني أي عادتي" وعند العلماء: " الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول على قبول ما هو عند الرسول".

ثانياً: المدلول الاصطلاحي:

هو ما اشتمل عليه من سعادة الدنيا والآخرة، ما تبتهج به نفوسكم، وتطمئن إليه قلوبكم، وترتاح له عقولكم، فإنه دين الدليل والبرهان، والذوق والوجدان، دين يحث العقول على النظر في الكائنات، ويدعوها إلى التأمل في الآيات، ويوقظ الهمم من سباتها، والنفوس من رقدتها، ويوافى القلوب بمشتهياتها الروحية، والأجسام بمطالبها البدنية ويحث على مصالح الدنيا كما يرغّب في الآخرة.

فقد جاء الدين الإسلامي بتوحيد الخالق عز وجل وتقديسه عن صفات المخلوقات، وإلى ما جاء به في حق الرسل، وأنهم عباد مكرمون لا يتجاوزون حدود العبودية مهما علت درجتهم، أو إلى ما جاء به من إصلاح النفوس ومداواتها حتى تكون منابع خبرات تفيض على هذا المجتمع الإنساني، ومصادر بركات يرتقي بها العمران، ويصبح جميع النوع البشري على غاية ما يكون من الصفاء، علمت أنه تنزيل من حكيم حميد، يشعر لنفسه بنفسه، ويقيم برهاناً على صحته من طبيعة ذاته، ولا شيء منظره دون مخبره، وكل ما يقال عنه دون حقيقة جوهره مثل الإسلام.

لم يترك الدين الإسلامي خاصة ولا عامة الا وبينها لنا في كل تعاليم الآداب، ومحاسن المعاملات، ما يسرنا وما يضرنا. جاء بكل ما تحكم به الفطرة السليمة، والعقول النيرة، والمشاعر الصافية، كل ما يجلب الخير، وكل ما يُبعد الشر، وكل مقومات التربية ذكرها الله في كتابه العزيز ما يُقوم الطفل ويرشده، حتى يصبح رجل حكيم، كما لم يترك للمرأة شأن من شؤنها الخاصة في بيتها مع زوجها، ومع أسرتها، حتى بيّنها وكرمها أيما تكريم وشرع لها الحقوق والواجبات.

تستشهد د. سالمة عبد الجبار بفقرة للدكتور محمد عمارة تقول:(أنه لو ألقيت سؤال: ما الإسلام؟ على أول شخص يعترضك، لقال لك بدون تردد: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قد يقودك البحث والتعمق إلى أبعاد وتحديدات أخرى تتضمن: الإيمان قولاً باللسان، وإخلاصًا بالقلب، وعملاً بالجوارح، وتتكفل كتب علم الكلام بتوضيح محتوى هذا الإيمان، وما يشمله من مباحث : كالنبوة، وكلام الله وأسمائه وصفاته، والقضاء والقدر، والبعث؛ مثلما تهتم كتب الفقه ببيان كيفية إقامة الشعائر من صلاة وزكاة وصوم وحج ، وقد يضاف إليها الجهاد وأحكام المعاملات؛ وتختص كتب أصول الفقه بشرح طريقة استنباط تلك الأحكام الدينية، بذلك يُعرف الإسلام عادة في نطاق العلوم الإسلامية التقليدية، إلا أن النظرة التاريخية والظواهر تقودنا إلى عدد من الاعتبارات التي تلقى أضواء جديدة على الإسلام، وتؤدي بنا إلى تجاوز النظرية التقليدية الضيقة .

ترى د. سالمة بأن الإسلام ينتمي إلى ما اصطلح على تسميته بمجموعة ديانات (الوحي النبوي)، في مقابل الديانات الصوفية أو الوضعية، إذن من هذا المنظور يشترك مع اليهودية والمسيحية في الإيمان بأن الله الواحد (سبحانه وتعالى) قد خاطب الناس عن طريق الرسل والأنبياء.

وهذا يترتب بالخصوص عن الاشتراك في هذه الخاصية تشابه في المشاكل التي تعترض الضمير الديني الموحد، بحيث لا نستطيع الخوض في المشاكل الإسلامية بمعزل عن المشاغل التي هزت وتهز الدينين الآخرين، دون أن يعني ذلك تماثلاً تاماً في طبيعة المشاكل المطروحة.

لذا ترى د. سالمة عبد الجبار إن الإسلام هو دين عدد كبير من البشر الموزعين في القارات الخمس، وإن أتباعه ينسبون في أغلبهم إلى ما يسمى بالعالم الثالث أي إلى أكثر المناطق تخلفاً في الميادين الاقتصادية والعلمية والتقنية والصحية وحتى الثقافية، وذلك ينعكس على المستويات الفكرية والسياسية والأخلاقية.

وعلى صعيد آخر يجدر الانتباه إلى أن عبارة ((إسلام)) تعنى -بالإضافة إلى مدلولها المعجمي الخالص -مستويات ثلاثة يؤدي عدم التمييز بنيها إلى كثير من الالتباس وسوء الفهم، وهي: -

المستوى الأول: الإسلام باعتباره مجموعة من القيم التي نص عليها القرآن الكريم، وهذه القيم الدينية الأخلاقية وإن اشتملت على مبادئي تشترك فيها كل الأديان، مثل: تحريم القتل والسرقة والزنا، حب الخير للآخرين، إغاثة الضعيف، فإنها تؤكد على بعض الأبعاد دون الأخرى. وهي تمثل قيماً وجودية، بمعنى أنها تضفي معنى على الحياة، وتوفر حلاً

لمعضلات المبدأ والمصير، وهي قيم خالدة تتجاوز الظروف التي بلغت فيها إلى الناس، ويحصل معها التجاوب عبر الزمان والمكان، وهي تمثل بعبارة أخرى جوهر الإسلام وما جاء من أجله من التوحيد والهداية:
تضيف د. سالمة عبد الجبار بأن القرآن لم يحتوي على هذه القيم مجردة فحسب، وإنما احتوى إلى جانبها على العديد من القصص المقصود بها الاعتبار، وعلى توجيهات في حل القضايا العلمية التي تعترض المسلم في حياته الاجتماعية.
لذا يعد المستوى الأول من الدين الإسلامي هو المستوى القرآني "ليس فقط المستوى المشترك بين المسلمين، إنما هو كذلك مستوى يمثل وظيفة مرجعية هامة جدا، أي أن طريقة فهمه وتأويله تكيف إلى مدى بعيد السلوك الذي يسعى الى الوفاء للتعاليم الإسلامية.
أما المستوى الثاني من الإسلام: مستوى الممارسة التاريخية: حيث أصبح المسلمون منذ انقطاع الوحي - بوفاة الرسول - صلىَ الله عليه وسلم -يعيشون ما يسمى بالوضع التأويلي، وأدى هذا الوضع إلى قيام مؤسسات غايتها تطبيق الدين في مختلف أوجه الحياة، مثلما أدى إلى نشوء نمط متميز من المعرفة، وهو ما عرف بالعلوم الإسلامية، وبذلك لابد من إبداء الملاحظات الاتية:
- أن أجيالاً عديدة ومتعاقبة من المسلمين كانت تعتقد أن هذا الإنتاج المادي والمعنوي ليس إنتاجًا حضاريًا وثقافيًا وإسلامياً فحسب. وإنما هو الإنتاج الإسلامي بأتم معنى الكلمة.
- أن سرعة انتشار الإسلام إثرَ حركة الفتوح، أدت إلى دخول عناصر بشرية مختلفة في الدين الجديد، ولم يكن هناك مناص من أن تحمل هذه العناصر معها عند دخولها الإسلام عقائد وحساسيات ونظرة إلى العالم تختلف عما كان سائدًا عند العرب والمسلمين الأوائل.
- لعب رجالُ الدين من مُحدثين وفقهاء ومفسرين ومتكلمين دور السلطة الكنيسية المحددة للإيمان القويم والمشهرة بالمخالفين، وقد أوكلوا لأنفسهم بالخصوص مهمة الكلام باسم الله، وأسبغوا على آرائهم ومقالاتهم صفة القداسة فاعتبروا (مثلا) القوانين التي سنوها، احكامًا إلهية، حجتهم في ذلك انها أحكام شرعية، لأنها مستنبطة من أصول إسلامية.
- إن تواصل السُّنَّة الثقافية الإسلامية، على نفس النمط تقريبًا، حتى عصر النهضة العربية الحديثة، وخلال فترات الازدهار والانحطاط على السواء، مرده أساسًا على الأوضاع التاريخية وأنماط الإنتاج وطرق العيش لم تتغير بصفة جذرية، إلا بظهور الحضارة الصناعية، وما صاحبه من ثورة علمية وتقنية، زلزلت أركان النمط المعرفي، فحل الوعي التاريخي محل الضمير الأسطوري، فصار المنهج التجريبي في علوم الطبيعة، والعقلاني والاستفهامي في علوم الإنسان، على حساب الثقة في نظريات المتقدمين والاكتفاء بحفظ النصوص وشرحها.
بهذا ترى د. سالمة عبد الجبار بأنه لا حرج من إخضاع الممارسة التاريخية للإسلام للنقد والمراجعة والتقييم، وأن القداسة التي أضفاها عليها الزمن ينبغي ألا تحجب طبيعتها البشرية.
كما ترى أيضا أن العقل وقع ضمن أيديولوجية تاريخية محددة في إطار التبرير والتسويغ، فخضع لها وأنغمس فيها، ورسخت كل جوانب هذه الأيديولوجية عن طريق الكتابة والنقل، والتكرار جيلاً بعد جيل، وقدمتها كأنها التراث الحي الفعال في نفوس العامة، ذلك لأن السلطة الرسمية لم تنقل إلا هذه النسخة من التراث، أي تحول إلى رؤية ذاتية محضة - وهذا هو الإسلام التاريخي - فما تريده د. سالمة عبد الجبار هنا هو وضع الإسلام التاريخي موضع النقد الحر الذي يسعى للفهم وللمساهمة في وضع الفكر الديني في ظل التطورات الراهنة للوعي الإنساني.
أما المستوى الثالث من الإسلام:
فهو يتعلق بالبعد الفردي في الإيمان: حيث ترى د. سالمة عبد الجبار أن عملية الاستبطان للقيم والمبادئ الإسلامية تتأثر بالشخصية الإنسانية الفردية معًا، لذلك تختلف عقيدة المتصوفة عن عقيدة الفلاسفة أو الفقهاء مثلاً، وفى نطاق كل صنف من هؤلاء يختلف إيمان كل متصوف وكل فيلسوف وكل فقيه عن نظيره ، وإذ كانت عبارة (إيمان العجائز) تعني الإيمان البسيط الذى لا يعتري صاحبه الشك فإن عنصر البداهة الذى يتميز به، والذي هو علامة الاندماج الاجتماعي الناجح، لا يتوفر لدى جميع الناس في جميع الظروف والأعمار والمستويات الذهنية، مما يجعل الإسلام في هذا المستوى مستعصياً على التحليل والتصنيف .
إن البحث في الإسلام عبر مستوياته الثلاثة المتميزة سيكون منقوصاً، إن هو اقتصر على الإنتاج الديني، ولم يهتم بمظاهر التدين الاجتماعي، حيث يصعب إهمال الميادين التي تهتم بها فيما يعرف بعلم الاجتماع الديني الحديث، والتي تُبرز الإسلام الحي والمعاش في الواقع الاجتماعي، لا إسلام الكتب والعلماء والمنظرين.

حيث تكتسي مظاهر التدين أهمية بالغة، فلا يجوز بحال الإعراض عن دراسة الكيفية التي تمارس بها الطقوس والاحتفالات الدينية الاجتماعية في الأعياد والمولد النبوي، كذلك الولادة والزواج والختان والموت، وغيرها من المظاهر الشائعة، مثل: زيارة القبور والطرق الصوفية والتقرب للأولياء والصالحين.

تدعونا د. سالمة عبد الجبار هنا للوقوف عند دراسة المستوى الثاني من الإسلام كما يتجلى في الفكر الديني والتراث الديني الإسلامي، خلال مباحث العلوم التقليدية، مثل: أصول الدين أو علم الكلام، والتفسير القرآني والحديث النبوي، والفقه، وأصوله.

تعد هذه المباحث هي الهدف لاستكشاف التغيرات التي طرأت على الفكر الإسلامي وهي بمثابة الإشارة إلى مواطن الثبات فيه، فالحلول التي يرتئيها المفكرون العرب لهذه الإشكالية، وهي التوفيق بين الدين والتراث الديني، أو ما يعرف بمشاكل الحداثة من منظور إسلامي، إنما تحددها منطلقاتهم المبدئية حيث تؤثر بدورها في نظرتهم إلى العالم وتصورهم لله (تعالى) والإنسان في علاقة جدلية على قدر من التعقيد.

هذا بالضبط ما حصل في مجال الفكر الإسلامي العربي الحديث، الاختلاف فقط في الوعي بنوعية هذا التحول ودرجته، فقد صار الخطاب الفكري المعاصر يعاني من الطابع الكلاسيكي، الذي يتمسك بلغة تحليل وأدوات فهم مختلفة عن لغة العلوم والحياة المعاصرة. وذلك هو منشأ سوء الفهم.

المبحث الثاني: مفهوم التراث.

أولاً: المفهوم اللغوي:

ان المدلول اللغوي للفظ التراث في المعاجم العربية مشتق من ورث. وهو مرتبط بالأرض والميراث والتركة، وما يتركه الرجل المتوفي لأولاده بعد وفاته، والوارث صفة من صفات الله عز وجل وهو الباقي الحي الذي يرث الخلائق فالله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوراثيين، فالعالم سيبقى ويرثه الله ويرجع الملك إليه، ونقول ورثه ماله ورثه غير ورثاً ووراثة وإراثة، ورث روثاً إذا مات موروثك، فصار ميراثه لك، وقبل الورث والميراث في المال والأرث في الحسب وورثه في ماله أدخل فيه ليس من أصل الوراثة: فيقال ورث فلان بن فلان أي حيلت ميراثه له. وأورث الميت وارثه مال أي شركة له، التراث ما يخلفه الرجل لورثته، والإرث أصله من الميراث، إنما هو ورث، فقلب الواو ألفاً مكسورة الواو، أورثه الشيء، وأعفيه إياه.

ثانيًا: المدلول الاصطلاحي: يعرفه (فهمي جدعان) بأنه منجزات الإنسان وهو إطار ثقافي لكل الشعوب والديانات التي عاشت في ظله، لكنه ظل عربي إسلامي بحكم الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام، فالإسلام دين وحضارة تحول إلى تراث العرب والمسلمين، وهو كل ما ورثناه تاريخياً.

ان محور العلاقة في ذلك التراث هو الله (سبحانه وتعالى) والإنسان، وما يهمنا في هذا العصر هو دراسة العلاقة بين الإنسان والإنسان من خلال المؤسسات التنظيمية والتشريعية والسياسية والاقتصادية ومدى ارتباط هذا التراث بالإنسان وعلاقته مع أخيه الإنسان.

ترى د. سالمة عبد الجبار إن الإشكالية التي بدأت واضحة في هذا التراث وانعكاسه على الخطاب الفكري المعاصر فالصلة بين التراث والمعاصر صلة وثيقة وخطيرة في نفس الوقت لأن الواقع الماضي والتراثي يُعلم من يعيشون الحاضر أن يأخذوا من وقائعه المحفوظة من (عمل وسلوك) حتى يتجنبوا الأخطاء ويحرصوا على التمسك بمكارم الأخلاق وتعلم أساليب التقدم... والقرآن الكريم الحافل بالآيات التي تدعوا إلى الاعتبار بالماضي والاتعاظ بوقائعه منها قوله تبارك وتعالى حيث يشير إلى قصص الأمم القديمة " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب". سورة يوسف/ الآية رقم 111.

وتكررت الدعوة إلى العبرة والعظة بعد كل قصة من القصص الواردة في كتاب الله أو بعد تعداد بعض النعم المتمثلة في خلق السماوات والأرض. فالتراث ضرورة تربوية لا غنى عنها، يستمد منها الإنسان الكثير مما هو في حاجة إليه من الصفات والخصائص والمقاييس، به الخير والشر، والحق والباطل، لكن العبرة والعظة غير كافيين لتعليم الإنسان، بل عليه أن يعرف أن النجاح والفشل، والنهوض والسقوط. كلها مشروطة بقوانين ارتضتها العناية الإلهية وخضعت لها كل المخلوقات ومراعاة هذه القوانين وتلك السنن شرط للتحقيق النهوض والنجاح وتجاهلها يؤدي إلى الفشل وهذا كتاب الله الذي يؤكد للمسلم هيمنة السنن والقوانين فيقول تبارك وتعالى: "سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً".

سورة الفتح/ الآية رقم23.

يُعد التراث، والدين ضرورة اجتماعية للبشر، فهما أساس تكامل البناء الاجتماعي، وتشكيل الإطار العام لهيكلية المجتمع وعناصر تقدمه فالإنسان مدنى بطبعه، ووجود التجمع لا بد له من أصول وثوابت، وقانون ينظم العلاقات البشرية، حتى لا تقع في الفوضى، والناس عادة لا تكفيهم قرارات العقاب والثواب في القوانين، إذ كثيراً ما يتحايلون على القانون، ويخرجون من سلطانه وهم بذلك في حاجة ماسة إلى دافع ذاتي ينبع من احترام الأنظمة القائمة وليس لغير الدين والتراث قوة داخلية تحقق هذا المطلب، لعدم توفر القداسة والثقة التامة بالأهداف التي تريدها السلطات المختلفة من وراء تطبيق القانون .

إذ لابد من قراءة التراث الإنساني قراءة عميقة تكشف بشكل جديد عن دوره وأبعاده في عالمنا المعاصر اليوم، حتى نتخلص من حالة الخوف من أن يصيبه التشويه إذا ما تم اقترانه بمناهج أخرى. لهذا يجب أن نؤسس لرؤية حضارية جديدة نحدد من خلالها مرحلة مقبلة مستقلة دون أن تدمجنا مع آخر يختلف عنا وعن تراثنا وقيمنا الإسلامية المنصوص عليها.

فالدين بذلك يضمن احترام الأنظمة والقوانين. وتوفير استقرار الجماعة بالحفاظ على المصالح الحيوية لهم، ودعم سلطان القانون. بالتعاون والتضامن، والتراحم والاهتمام العام، ومقاومة الفساد والانحراف والفوضى، وكان هذا الإحساس الداخلي بقيمة التدين وجدواه في الحياة الاجتماعية هو الذي جعل الناس: المصلحين والحكماء خاصة، يتلمسون النجاة لإنقاذ مجتمعاتهم، عن طريق الدين والقيم الأخلاقية والروحية التي توارثتها الأجيال وهو السبب المؤدي إلى تقويض الحضارات وانهيار قوام النهضة القائمة، إذ نجد أن الارتقاء المادي وحده لم يحقق السعادة والتقدم للبشرية، وإنما حمل معه الدمار والهلاك والحروب.

إن نزعة التدين فطرة في الإنسان، وإن للدين دوره ووظائفه الهامة نفسيًا واجتماعِيًا، هذه الوظائف هي الدعامة الأساسية لحضارة المجتمع، وبناء النهضة وتحقيق التقدم. وبذلك كان الدين عبر التاريخ قوة دافعة نحو الحضارة، ومحركاً أساسيًا للشعوب لتحقيق النهضة والتقدم.

دور الدين وأهميته في حياة الإنسان:

من الناحية النفسية كان الإنسان البدائي يحس في أعماقه بوجود قوة علوية قاهرة، لكنه لم يستطع التوصل إلى وصفها الحقيقي، فترجم عنها بألوان متعددة محسوسة، من هنا: فالدين نزعة في النفس الإنسانية، هذه النزعة ليست غائمة أو تائهة، وإنما تجد بها النفس البشرية غذاءً نافعاً لحالات عقلية وإرادية.

فقد أثبتت الدراسات التاريخية على مر العصور أنه لابد لدنيا الناس من دين، يوجه دنياهم، ويأخذ بأيديهم، لما فيه فلاح الفرد، وصلاح المجتمع، إذ ليس هناك قوة على وجه الأرض تكافئ قوة التدين، في احترام القانون، وتماسك المجتمع، واستقرار نظامه، الدين هو مصدر الترابط الروحي، والتماسك النفسي بين أفراد المجتمع، ذلك لأن مظاهر الفراغ الروحي تحمل في طياتها عوامل الفشل والشك والانهيار. يُعد الدين غذاء للروح روح فقد جُبل الإنسان على أن يكون دينياً لهذا بحث لنفسه في مختلف العصور على قوة خارقة أعلى منه.

تصف د. سالمة عبد الجبار لنا التدين فتقول: "يساعد العقل على إرواء تطلعاته وشوقه إلى مصدر الوجود وما وراء المحسوس ، فيعطيه الفكرة الصائبة التي تريحه، من عناء البحث الطويل وإدامة النظر المرهق دون أن يُمكن من الوصول إلى نتيجة حاسمة، كذلك لا ننسى دور الدين في : تربية الضمير، وتقوية الوجدان ، وشحن النفس بالعواطف الخيرة والقيم النبيلة التي تسمو فوق المادة الطاغية، والسيطرة والتغلب على عوامل الضعف و السلبية ، والرضى بثمرة الجهد المبذول ، وبذلك يستطيع الإنسان التخلص من الأزمات النفسية والأحقاد البشرية فتطمئن نفسه، كما أنه بالدين. يعالج أمراضه النفسية المختلفة، مثل القلق والحزن والقنوط والخوف، ففي اللجوء إلى الله والتضرع إليه شفاء للصدور". قال تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ). سورة لقمان/ الآية رقم 23.

المبحث الثالث: تحولات العصر وما يصاحبها من مستجدات.

أولاً التحولات:

لقد أصبح الاختراق الثقافي والفكري واقعاً ملموساً في ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية والقيمية؛ كما أصبح المسلمون في ظل هذا الرهان الصعب، يواجهون أزمات عديدة لعل أهمها التخلف العلمي والتشرذم السياسي والتراجع التقني والاقتتال الأهلي.

إن كل هذه الأسباب جعلت من الواقع الإسلامي واقعاً أليماً إذ ما ظلت الظروف والمفاهيم التي نعيشها بعيدة عن الإسلام -الذي نتفق جمعياً-على مبادئه الصافية وحقائقه الثابتة وسننه التي يتجاوزها الزمن.

ولا شك أن الأمم مثلها مثل الفرد قد تصاب بالمرض والوهن والضعف، ولكن الدواء الذي يجب أن تتجرعه لإصلاح ذاتها هو المبادئ، واستلهام سنن التطور من ثوابتها وأصولها.
فالإسلام يؤمن بثبات الأصول العامة والقيم العليا ويؤمن كذلك بالمتغيرات في الجزئيات والفروع، وهو مفهوم يقوم على التوازن وعلى الربط بين الثابت في مجال الأصول والمتغير في مجال الفروع.
ذلك هو مفهوم الإسلام الذي كان يجب أن تسيير عليه الأمم وتستقيم على هداه ... فالبناء في الحاضر والمستقبل لا يمكن أن يقوم ويقوى إلا على أسس ثابتة وقوية وكذلك الحضارة حيث تعد نظام اجتماعي بشرى، يدفع البشر إلى الزيادة في إنتاجه الثقافي عبر التاريخ، حيث تستنهضه وتدفع به الحوافز المختلفة للمضي في طريق الحياة، من أجل ازدهارها وتقدمها.
تستشهد د.سالمة عبد الجبار بهذا التعريف فتقول من شأنه أن يضعنا أمام قضية جوهرية، ارتبطت بالإنسان وعلاقته بالكون عبر التاريخ قضية الخلافة في الأرض، حيث إن الحضارات البشرية في التاريخ الإنساني هي حصيلة جهود بشرية، بذلها الانسان ولا زال يبذلها، ليجعل الدنيا أكثر جمالاً وقوة، ويجعلها أكثر قدرة على تحقيق المزيد من الوعي والحرية والسلام والتقدم المادي والمعنوي.
فالحضارات في التاريخ تتفاوت ضمن هذه الجهود، كما تتنوع الإضافات التي تحققها الأيدي الصانعة، والعقول المفكرة، والقلوب الحافلة بأجمل العواطف وأنبل المشاعر وأمثل القيم، والإنسان كما صنفه الوحي الإلهي هو خليفة الله في الارض، مُنح قدرات عقلية، وصفات نفسية وإرادة متميزة، وهي عنوان كل فعل يقصد به تحقيق غاية معينة.
علينا أن نبدأ من أنفسنا أولا أن كنا نريد النهوض والسير ضمن ركب الحضارة المعاصرة التي تسير بخطى متسارعة.
ثانياً: مواجهة المستجدات.
يغذى الدين الجانب الروحي في حياة الإنسان، فلم يعد يمثل هذا الاتجاه الغامض، وهذه العقائد المغلقة المرتبطة بالأساطير والمعتقدات الشعبية، بل أصبح يمثل مساراً فكرياً وخطّاً أيديولوجياً، ويحتل موقعاً أساسيا في جملة الأنماط الفكرية السائدة، وله دور أساسي في إرساء الأسس النظرية لحركة الحياة الإنسانية، باعتباره ممارسة دائمة للوعي الإنساني، وحضورا إنسانيا متيقظ الأبعاد، من خلال التعامل مع الطبيعة ومكوناتها المختلفة وبيئاتها المتعددة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
فقد كان للدين دور عبر التاريخ فهو المُولّد الحقيقي ليقظة الإنسان، والدافع الأساسي المباشر لبناء الكون، عن طريق حركة التقدم البشرى للنهوض فالتقدم برؤية د.سالمة عبد الجبار مرحلة ارتقاء في المواقع النفسية، قبل أن يكون إنجازا حسيًا، كما أن التخلف في الاتجاه المقابل هو تدهور في ملكات النفس، قبل أن يكون انحطاطّاً في مستوي الحياة المادية.
إذا التقدم هو: تغيير النفس لتتغير الحياة، لأن العلاقة الجدلية بين الإنسان والبيئة الخارجية أدت إلى اختلاف بنى آدم عن غيرهم من بقية المخلوقات الحيوانية والنباتية والطبيعية الأخرى. معظم هذه المخلوقات لا تُحدث في الطبيعة تغيراً يذكر، لأنها محكومة في علاقتها بالبيئة الغريزية أو بقوانين الطبيعة الآلية التي تحدد لها مسارها وتتحكم في تصرفاتها لذلك تظل الأشجار هي الأشجار لمئات الآلاف من السنين، دون تطور كبير في قدراتها العقلية أو تغيير في بيئتها الطبيعية.
أما الإنسان وحده هو الذي يتطور عقلياً وشعورياً، وتتطور معه الطبيعة والبيئة بمختلف تركيباتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وذلك هو التقدم - ومن ثم فإن العلاقة بين حياة الإنسان، الفكرية والشعورية، وبين حياته الخارجية في البيئة المادية أعمق مما يرى الماديون، الذين جعلوا الظروف البيئية ووسائل الإنتاج لها الغلبة والسيادة على فكر الإنسان وتطوره الاجتماعي والثقافي، فأصبح الإنسان الذى منحه الله ما منحه من قوى تتحقق بها علاقته بالله على الأرض، وبحكم هذا التصوير المادي، مثل غيره من أدوات الطبيعة التي تسيّرها الحتمية، وتدفعها قوى الطبيعة .
أن هذه الأسس الجوهرية تعتبر المنطق العام لأبجدية الحضارة في المجتمع المسلم حيث يصبح الوعي بتراث الماضي شرط أساسي لصنع الحياة الدنيوية المتكاملة والتي فيها أسباب الرقي ليكون الحاضر بكل لحظاته استشرافاً نحو المستقبل، ويصبح الأمل فلا حياة إنسانية واعدة بالأمل حالمة بالانتصار إلا ويجب أن تكون منطلقة في طريق الإيمان الخالص من أجل تعمير الكون وتطويره ولتحقيق (خلافة الله في الأرض).
تبقى المشكلة قائمة في جهل بعض أتباع الإسلام لدينهم، وهو ما قد يحسبه الغير مسلم جزءاً من الإسلام، فيحملونه تبعات كل ذلك. مع أن الدين الإسلامي نظم كل قوانين الحياة وكل العلاقات ولم يترك للآخرين ما يُقَدّمونه فهو صالح لكل زمان ومكان.

الخاتمة:

لقد مر الفكر الإنساني بمراحل تاريخية محددة، تميز بها عن غيره فكانت إسقاط طبيعي على واقع الإنسان لتلك المرحلة فخصوصيته ارتبطت إرتباطا وثيق بالمعطيات الموجودة في ذلك الوقت. ومن هنا يمكن القول أن عصرنا هذا يعد عصر النهضة والتطور السريع أو كما تم تسميته عصر صراع الحضارات، كما نُعت بعصر العولمة، وأيضا عصر التجديد. أي كانت النعوت والمسميات إلا أنها تؤكد جميعآ على التدين لأنه بارز في الفكر الإنساني، مع مدى مكانة الإسلام كدين فاعل على مستوى عالمي.

لذلك جاء هذا البحث ليؤكد على أن الدين الإسلامي قوي وينمو ويتزايد بل ويتجاوز العالم الإسلامي، فالخاصية التي يتميز بها الدين الإسلامي أنه يزيل كل أنواع الطبقية المادية وغيرها، كما أن درجة الفهم لهذا الإسلام من معتنيقه، وطريقة ممارسة شعائرهم، والقدرة على تأويل النصوص، واستنباط الأحكام، والربط بينها وبين ما يحدث مع البشر بكل تكاملية. هذا ما ميز الإسلام وجعله(دين ودنيا) في تنسيقة منسجمة بدأت غريبة على العقل الغربي، وهذا ما أثار إشكالية حضارية لديهم.

من هنا ظهرت الازدواجية التي يعاني منها المسلم اليوم لكن الحل لهذه الازدواجية هو وضع التراث ضمن منظومة التطور التي تتسارع في فضاء العالم الإسلامي للطغيان عليه . لأنه لا يمكن للمسلم أن ينسلخ عن تراثه الذي هو أساس تكوينه وسبب انتمائه، بل لا يمكنه حتى التخلص منه بحجة أنه سبب ضعفه وهزيمته بين الأمم.

بل يجب على المسلم أن يحصن نفسه من هذه الازدواجية بالارتكاز على قوامه (العروبة والتراث والإسلام) لأن الازدواجية خلقت فراغ فكري (أيديولوجي) لدى عقل المسلم. ومع ذلك فشل الغرب بمنهجه الغريب عن الدين الإسلامي في اختراق المسلم الصحيح، مع أن المسلم نجح في ذلك بالنسبة للعقلية الغربية. فالمبادئ والقيم الإسلامية كانت ولازلت تملك القوة في مواجهة المناهج الغربية الوافدة، بل وتطمح لطلب العلم وتحث العلماء وتشجعهم على المنافسة للحصول على أعلى درجاته. برغم من اتهامها بأن سبب تأخرها للنهوض هو تمسكها بالتراث.

لا يمكننا أن ننكر هناك من يقدمون الإسلام بطريقة تؤكد عجزهم عن مسايرة تقدم الفرد والمجتمع معاً، كما يظهر لنا اتجاه آخر، ينادي بتحرير الإنسان من كل القيود بحجة الظلم والقمع. لكن ذلك لا يجب أن يضيع الفهم الصحيح للدين الإسلامي فممارسات معتنيقه عندما تكون صحيحة ونابعة من تراثنا وقيمنا الإسلامية تكون في مستوى الصفاء والنقاء والحكمة، التي جاء بها الدين الإسلامي. هذا الدين الذي تمسك بالشريعة في الحياة حتى أصبح الإسلام دين مزواجة بينه وبين الدنيا.. الدين بقيمه وقوانينه، والدنيا بكل انماطها ومجالاتها.

كل ذلك يثبت أن التمسك بالدين والتراث معاً في وجه تحولات العصر يدل على مدى قوة علاقة المد الديني الإسلامي بالإنسان وقدرته الجادة لمعالجة الوضع الراهن وتعزيز مكانته بين الأديان وأنه دين قادر على التواصل مع الماضي والحاضر لإصلاح المرحلة التاريخية التي تعاني من التقهقر والازدواجية للخروج من الصدمة الحضارية.

قائمة المصادر والمراجع..

- القرآن الكريم.
- أبن منظور، لسان العرب، دائرة المعارف الإسلامية، مادة (دين)، م 9.
- أبن منظور، لسان العرب، المكتب الثقافي لتحقيق الكتب،(دين).
- سالمة عبد الجبار، الدين وقضايا العصر، السلسلة الفكرية، (3) الدار العلمية للطباعة والنشر، طرابلس، 1997م.
- سالمة عبد الجبار، تأملات، دار الأصالة، 2009م. ط (1).
- سالمة عبد الجبار، الإسلام والحرية، 2005م. السلسلة الفكرية (1)، ط (1).
- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، 1321م. المطبعة الحلبية، القاهرة.
- فهمي جدعان، نظرية التراث، 1986م. دار الشروق و التوزيع، عمان، الأردن، ط (1).
- محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، 1988م. دار قتيبة للطباعة والنشر، (د. ط).
- يوسف الدجوى، تعريف عام بالإسلام، 1949م. دار أبن كثير، بيروت، ط (1).

الندوات العلمية:

سالمة عبد الجبار، ندوة عقدت ما بين 28/ 31/ 1994م. بعنوان: الدين والمجتمع المعاصر، نظمها مركز دراسات سلطة الشعب، بصوفيا، بتعاون مع مركز أبحاث طرابلس.